من الأدب الصيني القديم

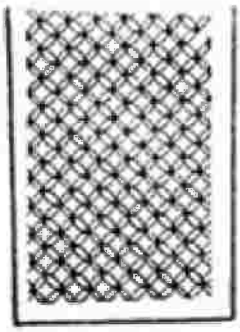

ذئب تشنجشان

للكاتب هيسيالياتج

ترجمة : منيره عبدالجواد دكروري

في احد الايام ، وفي كثير من الصخب والضجيج ، خرج البارون تشاو للصيد في جبال تشنجشان ، تصحبه مجموعة من كلاب الصيد ، وصيادون محترفون مسلحون بحراب وسهام ، وبعض نسور الصيدالمدربة ، وفي الطريق ، راى البارون ذئبا يقف على مسافة قريبة عند مفترق الطرق تماما . كان الحيوان يقف على رجليه الخلفيتين ويعوى كانما ليجتذب الانتباه اليه ، وهكذا اصبح هدفا ملائما فاطلق البارون سهما اصاب الحيوان وجرحه ، ولكنه استطاع الهرب فطارده الصيادون ، ودوت الغابة بصيحات الرجال وكلاب الصيد وارتفعت سحابة من الغبار ، ساعدت الحيوان على الهرب .

في هذه اللحظة ، كان السيد تونجكيو في طريقه الى تشنجشان ممتطيا حمارا هزيلا ولايحمل سوى حقيبة تحتوي على كتبه وملابسه القليلة . والسيد تونجكيو هذا احد الموتسيين ، اتباع موتسي ، ذلك المذهب الديني الذي كان مزدهرا آنذاك ، والذي يتميز أتباعه بحياتهم الصارمة التي تدعو الى التضحية بالنفس والانصراف الى خدمة زملائهم من بني البشر ، واخذوا يبشرون بالحب العالمي . محاولين هداية الملوك والارستقراطيين والاناس العاديين بحماسة متعصبة وكرسوا انفسهم لحياة فقيرة مغامرين بارواحهم في كثير من الاحيان لمساعدة الآخرين وسعادتهم .

سمع تونجكيو الضوضاء والاضطراب ثم راى الذئب الجريح يجرى مندفعا تجاهه والصيادين يجدون في اثره ، وما ان راى الذئب الموتسي ، حتى عوى في الم طالبا المساعدة ، فهزت الشفقة قلب تونجكيو اذ راى السهم مغروزا في ظهر الحيوان المسكين وقال له :

ـ لاتخف ، سانزع السهم منك .

فصاح الذئب :

ـ اوه ، انت موتسي ، انك رجل طيب ان الصيادين يجدون في اثري ، دعني اختبيء في حقيبتك حتى تنتهي المطاردة

وسأظل معترفا بجميلك الى الابد اذا انقذت حياتى .

ـ لماذا ورطت نفسك فى هذه المشكلة أيها الذئب المسكين ! انك فى حاجة الى قليل من الحكمة ، هذا هو كل ماينقصك وعلى أية حال ادخل الحقيبة بسرعة ولاتتحدث عن العرفان بالجميل ، انى لمسرور ان اقوم بما استطيع تجاهك .

ثم نزع الموتسى الاشياء من حقيبته واخذ يحثر الذئب بها ، ولكن الذئب كان بالغ النمو والحقيبة اصغر من ان تسعه ، فاذا ادخل راسه اولا ، بقيت ارجله الخلفية وذيله الكث خارج الحقيبة واذا ادخل ذيله اولا ، لم يكن يستطيع ان يحثر مخالبه الامامية وراسه دون ان يكسر رقبته ، حاول واعاد المحاولة بكل وضع ممكن ، ولكن دون اى نجاح ، واخيرا صاح الذئب فى الموتسى :

ـ أسرع ! ان المطاردة تقترب ، هيا اربطنى .

وتكوم الذئب على الارض وترك الموتسى يربط جسده ، وارجله فى حزمة واحدة واخيرا ، وبكثير من الضغط والحثر ، افلح تونجكيو فى ادخال الذئب فى الحقيبة ووضعها على ظهر الحمار .

نظر تونجكيو حوله فوجد ان الذئب قد خلف على الارض آثارا ونقطا من الدم تنزف من الحقيبة ، بل واكثر من ذلك راى يديه هو نفسه قد تلطختا بالدم ، ففزع ، وباسرع مايمكنه غطى الآثار ومسح يديه وادار الحمار حتى يمكنه اخفاء الحقيبة . وعندما وصلت الجماعة ، ساله البارون ما اذا كان قد راى ذئبا فرد تونجكيو بهدوء :

ـ كلا ! ان الذئب حيوان ماكر ، وما كان ليسلك هذا الطريق ، لابد انه مختبىء فى مكان ما فى الغابة الواسعة .

حدجه البارون وضرب على سيفه الذى فى يده وقال :

ـ اذا حاول احد ان يساعد الحيوان على الهرب فسيدفع الجزاء غاليا مقابل ذلك .

وبهدوء امتطى تونجكيو حماره ولوح مودعا للبارون وهو يقول :

ـ اذا رايته فى اى مكان فساحيطك علما ، وانمنى لك حظا سعيدا فى الصيد .

وعندما تلاشى وقع حوافر جياد جماعة الصيادين ولم يعد الذئب يسمع اصواتها ، صاح من الحقيبة .

ـ اطلقنى بسرعة ! انى اكاد اختنق !

وفى الحال ، نزل الموتسى من على حماره وساعد الذئب فى الخروج من الحقيبة وفك وثاقه ولمس الجرح برقة وساله :

ـ اما زال يؤلمك ؟ انى خائف من اجلك :

ـ كلا ! ان الجرح مجرد خدش طفيف ، والآن ، وقد انقذت حياتى ، اتتكرم على بجميل آخر ؟

ـ سيسرنى جدا أن أؤدى لك اى عمل يكون فى مقدورى ، فانا موتسى كماتعلم ولن يستطيع انقاذ العالم الا مبدأ الحب فقط . ماذا تطلب منى ؟ انى تحت امرك .

ـ حسن ، انى جائع ـ ولم اذق طعاما منذ ثلاثة ايام ، واذا مت هـذه الليـلة فانك تكون قد انقذت حياتى هباء ، لما لاتدعنى آكلك ؟ مجرد بعض التضـحية بالنفس كما تعلم ، فانا لا اطلب كثيرا ، هل اطلب كثيرا ؟!

وفغر الذئب فاهه واشرع مخالبـه وتحفز للانقضاض عليه ، فغزع تونجكيو واندفع بسرعة الى الجانب الآخـر من الحمار وهو يرتعد خوفا على حياته وقال محتجا :

ـ انك لا تستطيع ! لا .. لاتستطيع ان تفعل هذا !

ـ لم لا ؟!

ـ لاتستطيع ، لقد انقذت حيـاتك منذ لحظة وجيزة .

وبدأ كل منهما يطارد الآخـر حـول الحمار الذى اربكه هذا الشجار والنقاش للغاية .

وقال الموتسى مخاطبا الذئب من فوق كتف الحمار :

ـ والآن كن منطقيـا ! لا فائـدة من مناقشتنا ومحاولتنا فض النزاع بالقوة لن اقتنع بانك على صواب حتى لو انك نجحت فى تقطيعى اربا ، وسيؤلمك ضميرك الا تراه سيؤلمك ؟ اظن انه يهمك ان تتأكد عندما تاكلنى انك انمـا تفعـل الشىء الصواب .

فعوى الذئب قائلا .

ـ بالطبع ، ولكنى جائع ومتعب من هذه المناقشـة .

ـ اذن دعنا نفض هذا النزاع منطقيا، اقترح ان نخضـع للتحكيم ، وحسـب العادة نسأل ثلاثة من كبار السن ليقرروا ما اذا كان الحق فى ان تاكلنى أم لا ، مع مراعاة حقيقة انى انقذت حياتك .

فاجاب الذئب :

ـ حسن ، حسن ، ولـكن لاتـكن مسهبا ، انى مقتنع ان الله قد خـلق الرجال لتاكلهم الذئاب ، اننا اسمى جدا بالقياس لجنسكم ، انت لاتستطيع حماية نفسك ، انتم جنس منحط ، هـذا هو انت !

وسارا معا فى الطريق ، ولكنهما لم يقابلا اى شخص ، اذ كانت الدنيا قـد بـدات تظلم ، وقال الذئب مشـيرا الى ارومة شجرة عجوز على جانب الطريق .

ـ انى فى الواقع جدجوعان ولااستطيع الانتظار اكثر من ذلك ، دعنا نسأل هذه الارومة .

ـ انها مجرد شجرة ، ماذا تعـرف هى ؟

ـ اسالها وستخبرك .

فانحنى الموتسى للأرومـة العجوز واخبرها انه قد انقذ حياة الذئب معرضا حياته هو للخطر ثم سألها :

ـ خبرينا ، هل من العدل فى رايك ان ياكلنى الذئب ، هل هذا يعد عرفانا بالجميل ؟

فاطلقت الشجرة صوتا ضخما هادرا وقالت :

ـ ياسيدى الفاضل ، انى افهم مانعنى انت تتحدث عن العرفان بالجميل ، دعنى اخبرك بقصتى ، انا شجرة مشمش ، عندما غرسنى البستانى لم اكن سوى

بذرة ، وفى خلال سنة ازهرت . وفى خلال ثلاث سنوات اثمرت ، وفى خلال خمس سنوات كان جذعى فى حجم الذراع ، وفى ظرف عشر سنوات كان فى حجم كرش الطفل . والآن بلغت العشرين ، وطوال حياتى وانا اطعم البستانى واصدقاءه ، بل انه كان يبيع بعض ثمارى فى السوق وكون منها ثروة ، والآن يرى البستانى انى عجوز ولاأستطيع الاثمار ، فنزع اوراقى وقطع اغصانى ، ونشر اطرافى ليتخذها وقودا ، ولم يكتف بذلك ، فقد سمعت انه سيبيع مابقى منى خشبا ليشقق وينحت ، حسن ، هذه هى الحياة فلماذا لايأكلك الذئب ؟

فصاح الذئب فى سرور عظيم وهو يستعد للهجوم على تونجكيو :

ـ هاهى ذى روح حكيم تتكلم .

فقال تونجكيو :

ـ انتظر ! مازال علينا ان نسمع راى اثنين مسنين آخرين علاوة على ذلك .

ـ ليكن مانقول ، ولكن يجب ان اقول لك ان رائحتك تبدو لى اشهى الآن مما كانت فى اى وقت مضى .

وسارا لمسافة قصيرة ثم التقيا بجاموسة تستند على سور قديم وتبدو جد متعبة من الحياة فقال الذئب :

ـ سلها ، انى متاكد انها قد تعلمت الكثير من الحياة .

وفى الحال اخبرها الموتى بقصته وسألها حكما عادلا ، فنظرت اليه الجاموسة ببرود بينما هو يفكر باستخفاف ، فكرت الجاموسة لحظة ولعقت لسانها ثم اجابت :

ـ ان ماأخبرتكم به شجرة المشمش صواب ، انظر الى ، انى عجوز ونحيفة ، واموت من الجوع ، كان يجب ان تربانى عندما كنت صغيرة ، لقد اشترانى احد المزارعين من احد الاسواق وجعلنى اعمل فى مزرعته ، كانت البقرات الاخريهرمن واقوم انا بمعظم العمل ، كان المزارع يقول انى المفضلة لديه . وعندما كان يذهب الى اى رحلة من رحلاته كان يسرجنى ، وعندما اراد ان يعمر ارضا مجدبة حرثتها له وجعلتها ارضا خصبة تمكن زراعتها ، وفى موسم الزراعة كنت اخوض فى الوحل ، وفى موسم الحصاد كنت اعمل فى الطاحون ، لم اشفق على نفسى وكنت اقوم بعمل عاملين او ثلاثة فتحسنت حال المزرعة والمزارع نتيجة لكدى وكدحى فقد كان طعامه ولباسه والنقود التى يدفع منها ضرائبه ، كل هذه النقود جاءته منى ... والآن ! لقد صار فى امكانه اضافة جناح جديدلمخزن غلاله ، وزوج ابنه واصبح يحيا حياة مريحة كالنبلاء ، يحيط به ابناؤه واحفاده ، ليتكما رايتماه عندما جئت الى بيته ، لا .. لاتتحدث عن ادوات المائدة،لماذا ؟!! لقد تعود أن ياكل فى اوان واطباق وملاعق من الفخار ، والآن ، ان لديه قوارير من الخمور فى مخزنه .ماذا صنعت انت للذئب ولم اصنعه انا لاسرة المزارع ؟ ولكن زوجته تظن انى عديمة الفائدة ، انى عجوز ، وهذا كل مافى الامر ، وتدعنى اتسكع فى الخارج واناام فى العراءمعرضة للرياح والبرد . وهاانت ذا تراانى واقفة هنا محاولة الحصول على قليل من دفء الشمس ، ولكن عندما ياتى الليل ، فانى اصير وحيدة ، ومع ذلك لم اهتم ، فكل واحد يهرم ، ولكنى

سمعت زوجة المزارع تقول انهاستبيعنى للجزار ، فلحمى يمكن حفظه وجلدى يدبغ اما حوافرى وقرونى فيمكن نحتها ونقشها وصنع بعض الادوات المفيدة منها ، آه ، هذه هى الحياة ، لاتحدثنى عن العرفان بالجميل ، انى لا ارى سببا واحدا كى لاياكلك الذئب .

ومرة ثانية استعد الذئب ليغرز أسنانه فى ذراع الموتسى ، ولكن تونجكيو قال :

ـ كلا ! ليس الآن ، لقد كنت صبورا فدعنا نسمع ماسيقوله العجوز الثالث طبقا لاتفاقنا .

وفى الحال رايا شيخا مسنا يسير على عصا مقبلا نحوهما . كان العجوزذا لحية بيضاء ، ويبدو كقديس فسر تونجكيو لوجود آدمى واسرع نحوه يرجوه أن يفض هذا النزاع بينه وبين الذئب .

ـ ارجوك ، كلمة واحدة منك ستنقذ حياتى ايها العم العجوز .

واستمع العجوز الى القصة ثم قال وهو ينظر الى الذئب بعيون غاضبة .

ـ ياله من نكران للجميل ، اتعرف ان الشخص الناكر للجميل سيكافا فى كهولته بابن عاق ؟!!! سيكون لك فى يوم من الايام ابن ، وسيكون قاسيا عليك على الرغم من كل مافعلته له ، اغرب عن وجهى والا قتلتك .

فقال الذئب فى توسل .

ولكنك لم تسمع قصتى بعد ! من فضلك استمع لى ! لقد كتفنى الموتسى وحشرنى فى حقيبة بالغة الضيق حتى كدت اختنق وظننت انى على وشك الموت ، ليست لديك فكرة كم أنا متعب داخل الحقيبة :

فقال الشيخ :

ـ فى هذه الحالة يجب ان يلام الموتسى

وبدات المناقشة من جديد فقال الشيخ :

ـ لادرى لمن منكما استمع ؟ ولا من اصدق ؟ تقول انك انقذت حياة الذئب ، والذئب يقول انك آذيته ، والطريقة الوحيدة للحكم من منكما على صواب ان ارى تصويرا فعليا للحادث ، سأرى بنفسى الوضع المتعب الذى جعلك الموتسى فيه داخل الحقيبة .

فقال الذئب :

ـ سترى

وسمح لهما ان يقيداه ويحشراه داخل الحقيبة وهمس الشيخ للموتسى .

ـ الديك سكين .

فقال تونجكيو فى حيرة .

ـ نعم

ـ حسنا ؟!

ـ انك لاتطلب منى ان اقتل الذئب ! انفعل !

ـ كما تشاء ! اما أن تقتله او يقتلك هو . يالك من اخلاقى غير عملى ! وبينما هو يقول ذلك ، ساعد الموتسى فى تمرير السكين على الذئب فى الحقيبة مماوضع حدا للمناقشة .